خلافة الأمين
((193-198هـ))- ((808-813م))

الصراع بين الأمين والمأمون

المقدمات :

بموت هارون اوشكت الدولة العباسية أن تنقسم الى قسمين ينازع كل منهما الاخر : الجزء الغربي حيث مدينة الخلفاء ، بغداد وعلى رأسه الأمين والجزء الشرقي أي خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة مرو ويعود هذا التقسيم الى الرشيد ، ولربما تحقق الانفصال فعلا بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة ولو أن كلا من الابنين احترم وصية ابيه لما حصل النزاع ، والظاهر أن هذا الانفصال كان لابد منه اذ أن المشرق كانت له أمانيه وأماله السياسية التي يعمل على تحقيقها ، والتي ظهرت جليا بقيام الدولة العباسية نفسها وسنرى فعلا أن المشرق سيحقق استقلاله فعلا أن لم يكن شكلا على عهد الطاهرين على أيام المأمون .

ويفهم من ذلك أن مسألة الصراع بين أبناء الرشيد لم تأخذ شكل نزاع عائلي من اجل وراثة العرش بل صراع من اجل فرض الارادة بين مشرق الدولة ومغربها على ذلك فلن يكون للمطالبين بالخلافة رأي كبير في سير الاحداث . فالاخوين الشابين كانا العوبة بيد رجالات السياسة المخضرمين فالمأمون كان تحت سيطرة وزيره الفضل بن سهل وقائد جيشه طاهر بن الحسين والامين تحت سيطرة وزيره الفضل بن الربيع وقائد جيشه علي بن عيسى بن مهان فكانا يديران الصراع السياسي الذي تحول فيما بعد الى نزاع عسكري دفعت الامة الاسلامية ثمنه دما ومالا بدأ الاختلاف بين الأمين الذي له الخلافة والمأمون عندما رفض الأمين – بصفته الخليفة – الاعتراف بما أوصى به الرشيد ، من أن يؤول عسكره وكل ما فيه من الاموال والامتعة والعدد الى المأمون .

وعمل على أن يعود هذا الجيش بكل اثقاله اليه ، بفضل الفضل بن الربيع الذي حضر وفاة الرشيد ، وغيره من القواد الذين ارسل اليهم بتعليماته ولكي يخفف من روع المأمون كتب ايضا اليه في الأمر . ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما ، وكذلك لاخيهما القاسم((المؤتمن)) .

وقام ابن الربيع بدعوة الجند الى الانفضاض من حول المأمون والعودة الى بغداد فاجابه كثير منهم رغم ما قام به قواد المأمون وعلى رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسؤالهم الوفاء وتحذيرهم الحنث ((قال ابن الربيع أنما أنا واحد من الجند)) نتج عن ذلك احراج كبير في موقف المأمون ولكن أبن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب أتباعها والتي تتلخص بالاتي : اولا في الاعتصام بخراسان اذ أن الخراسانية أخواله ((المأمون)) وهم بحكم قرابتهم هذه لن ينقضوا البيعة التي له في اعناقهم : ثانيا انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء الى الحق والعمل به واحياء السنن ثم الاهتمام شخصيا بأمور الدولة ورد المظا لم واظهار التقشف والزهد ، وبدأ تنفيذ هذا البرنامج بعمل موفق ، وذلك أنه خفض ربع الخراج عن الخراسانية مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد ،(قالوا بن اختنا وابن عم نبينا)) كما أنه لاين الأمين في نفس الوقت الذي عمل فيه على توطيد مركزه في ولايته الشرقية ، بأن كتب اليه وعظمه واهداه الهدايا .

أما عن الأمين فأنه من جهته لم يرض عن موقف اخيه ، وعمل على اعادة الوحدة للدولة على أن يحقق لنفسه السيادة الفعلية وبدا ذلك على حساب الاخ الثالث ، وهو القاسم ((المؤتمن)) الذي كان يلي الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته وأقره على قنسرين والعواصم فقط وكانت هذه هي الخطوة الاولى في السنة الثانية 194هـ خطا الخطوة الثانية وكان فيها تهديد مباشر للمأمون وما يمكن أن نسميه بتمهيد للاغارة على حقوقه في وراثة العرش والخلافة اذا امر الأمين بأغراء وزيره الفضل بن الربيع بالدعاء لابنه موسى الذي كان طفلا صغيرا في خطبة الجمعة الى جانب الدعاء لاخويه .

وكان من الطبيعي أن لا يسكت المأمون – تحت ضغط وزيره الفضل بن سهل هو ايضا – على هذا العمل غير الودي واجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد ، وقطع كل علاقة به ((اسقط أسمه من الطراز ومن النقود وقطع عنه البريد))
وزاد من تأزم الموقف ، اذ كشف الأمين عن نواياه وأرسل بعثة الى المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه في الوراثة ((تقديم موسى بن الأمين عليه)) وربما في ولايته للمشرق طلب اليه أن ينزل عن بعض كور خراسان وأن يكون عنده صاحب البريد يكاتبه بالأخبار .

وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون إجابة مطلب الخليفة (1) كما لم يوافق حزبه أطلاقا على خروجه من خراسان ، هذا رغم الموقف السياسي للأطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر فاذا كان رافع بن الليث قد مال الى الاستسلام والطاعة فأن غيره كان قد أعلن العصيان مثل جابغو او جبغوية الفارلوق على((سيحون)) وخاقان التبت ، وملك كابل الذي كان يستعد للإغارة على خراسان ، وملك اترار ((مركز الغز)) الذي منع الضريبة .

وأستطاع ابن سهل أن يدبر الأمور تدبيرا حسنا ، وأن يظهر مقدرة سياسية فائقة وذلك أنه بدأ باستمالة احد أفراد بعثه الأمين وهو العباس بن موسى بن عيسى (حفيد عيسى بن موسى الذي خلع على عهدي المنصور والهادي) ، فكان يكتب اليهم الإخبار من بغداد ثم أنه شدد الحراسة على حدود خراسان ومنع العبور الى ولايته الا للأشخاص المعروفين أما بما يتعلق بملوك الأطراف من الوطنين فأن الفضل نصح المأمون بإرسال خطابات لجابغو والخاقان يؤكد لهما سيادتها على بلادهما ويعدهما بالمساعدة ضد اعدائهما وأن يرسل هدايا الى ملك كابل وأن يعفي أمير اترار من جزية عام وفعلا نجحت هذه الإجراءات في استتاب الأمن والسلام في هذه النواحي .

- *خلع المأمون*

حاول الأمين أنفاذ الرسل لإقناع المأمون بالعدول عن موقفه ولكنهم منعوا عند الري من حرية الاتصال بأهل البلاد : حفظوا في حال سفرهم واقامتهم من أن يخبروا او (يستخبروا) عندئذ رأى الأمين أن القطيعة قد تمت وعمل على أن يعيد توحيد الدولة عن طريق استعمال أساليب العنف . وفي اوائل سنة 195هـ أعلن خلع المأمون من ولاية العهد وأخذ البيعة لابنه موسى بدلا منه ولقبه " الناطق بالحق " وجعل له ديوانا من الشرطة وحرس ورسائل وعهد بإدارة شؤونه وتأديبه الى علي بن عيسى بن ماهان والى خراسان السابق ثم عهد لابنه الأخر عبد الله ولقبه " القائم بالحق " كما أعلن عدم صلاحية النقود التي ضربها المأمون والتي لا تحمل اسم خليفة بغداد للتداول .

وأتبع الأمين ذلك بأن أرسل الى الكعبة وأتى بكتابي العهد التي كتبها الرشيد ومزقهما وخرج من حيز الكلام الى حيز العمل وكلف علي بن عيسى بن ماهان القائم بأمر ولي العهد الجديد بالسير الى خراسان للقبض على ولي العهد المخلوع وتنفيذ ما أتخذه من إجراءات ضده .

ولاشك في أن اختيار بن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختيارا موفقا فالرجل معروف بسوء السيرة في خراسان لجشعه في ابتزاز الأموال حتى اضطر الرشيد الى عزله بعد أن جمع ثورة طائلة وبعد أن كان يقاسمه في استغلال البلاد والظاهر أن الأهواء الشخصية قامت بدورها في هذا الاختيار ، فأبن ماهان كان يطمع في العودة الى منصبه القديم المغري ، وربما أراد الأمين أن يكيد لأهل خراسان فولاه هذا الأمر نكاية فيهم ، ولكن بلغ عدم التوفيق ، هذا ، حدا قيل معه أن عينا للفضل أبن سهل هو الذي أشار بإنفاذه حتى يقاومه أهل خراسان .

- بداية الصراع

سار علي بن عيسى على رأس 50 ألف رجل ، وخرج الأمين ووجوه أهل دولته لوداعه . وأتجه جيش بغداد نحو الري حيث كان يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين والحصول على دعمهم ولا نعرف الى أي حد نجحت هذه الخطة رغم ما يقوله الكتاب من ان هؤلاء الملوك اجابوه الى قطع خراسان ولكن المحقق أن ابن ماهان استهان بأمر طاهر ، اذ تقول النصوص بأنه لما طلب أليه أصحابه بث العيون وعمل الخندق ، قال : " مثل طاهر لا يستعد له " وخرج طاهر من مدينة الري في جيش قليل العدة (نسبيا اربعة الاف) حيث عسكر على بعد قليل منها (5 فراسخ) كما حرض جنده على القتال خالعا الأمين داعيا بالخلافة للمأمون وكان الغرض هو أعطاء موقفه جيشه صفة شرعية حتى لا يخيل للجند انهم يقفون موقف الخارجين على صاحب الأمر ، وأتخذ كل من الجيشين تشكيل القتال ووقف الواحد منها أمام الأخر .

وبدأ طاهر بمظاهرة سياسية بأن حمل صاحب شرطته بيعة المأمون وعلقها على رمح ، ودعا علي بن عيسى الى تقوى الله في البيعة التي أخذها ولما خرج خرج احد أصحاب ماهان عليه بالسيف أظهر شجاعة فائقة ، اذ حمل عليه وأخذ منه السيف بيديه وصرعه ولهذا سمي طاهر ذو اليمنيين .

وفي هذه الأثناء حدثت مفاجئة سيئة بالنسبة لطاهر ، وذلك أن أهل الري أغلقوا باب المدينة دون عسكره ، ولكن يظهر أنه كان يتوقع مثل هذا منهم ولذلك فضل الخروج والقتال بعيدا عن المدينة فأمر أصحابه بالاشتغال بمن أمامهم فقط . وبدأ القتال في صالح علي بن عيسى فهزمت ميمنته مسيرة طاهر هزيمة منكرة ، وعرجت مسيرته على ميمنة طاهر فزحزحها عن مواضعها . ولكن طاهر أظهر كفاءة عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف في عضده ، فأمر أصحابه بالقيام بهجوم خاطف (حملة خارجية) على قلب علي بن عيسى وبفضل ذلك الهجوم القوي تحول الموقف لصالح طاهر فأنسحب جناحا ابن ماهان ، وكثر القتل في أصحابه وسقط هو قتيلا بضربة سهم في الميدان ولم ينقذ المنهزمين الا حلول الليل بعد أن التجأ كثيرون منهم الى معسكر طاهر بعد أن أمنهم .

- الزحف الى بغداد

جاءت بعد هذه الواقعة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من الري الى بغداد وهي تعيد الى الذهن انتصارات الجيش الخراساني التي انهت الخلافة الاموية . تمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الأمين عبد الرحمن بن جبلة الذي ولي همذان ، والذي كان يأمل أن يلي كل ما يفتحه من أرض خراسان هزمه طاهر مرتين ، وحاصر مدينة همذان حتى ضجر أهل المدينة ، فطلب عبد الرحمن الأمان وخرج عن المدينة ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر اذ شن عليه هجوما شديدا يائسا انتهى بقتله وهزيمة أصحابه، وبعد الاستيلاء على همذان عمل طاهر على تأمين ظهيرة قواته عن طريق احتلال قزوين ولم ينتظر قائد الأمين وجيشه الكثيف وصول طاهر اذ أنه رأى الجلاء عن البلاد ، فوضع طاهر حامية لمنع مرور اية قوات من هناك .

وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتى وصل الى قرب حلوان ، حيث عسكر هناك وكان للانتصارين اللذين أحرزهما طاهر أثرهما الكبير في أضعاف الروح المعنوية لدى قواد وجيوش الأمين .

وظهر الفشل في حزب بغداد بهرب الفضل بن الربيع ، الذي كان يشكل القوة المحركة للحداث. فتبين

أن موقف بغداد ميئوس منه وكان من الطبيعي أن تتقدم جيوش خراسان بسهولة ولا يصادف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة فتمكن من الأستيلاء على الأهواز بعد أن حاول واليها الدفاع عنها فلقي حدفه كما أن طاهر اصيب في هذه المعركة بجراح بليغة " فقطعت يده " وبإستيلاءه على الأهواز تمكن من السيطرة على المنامة والبحرين وعمان و أرسل اليها عمالا يلونها من طرفة واستمر تقدم طاهر دون مقاومة حتى أتى واسط التي أستسلمت للخراسانية دون مقاومة هذه المرة ومنها أرسل احد قواده الى الكوفة وكانت قد خلعت الأمين واعترفت بخلافة المأمون (كان عليها العباس بن موسى صنيعة ابن سهل ، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها)

وبذلك تم لطاهر الاستيلاء على كل الأراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما اعلن والي البصرة خضوعه له ، واعقبه والى الموصل وبهذا اصبحت بغداد شبه محاصرة وانقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية ، وتم خروج كل بلاد العرب جميعا من سلطان الأمين ، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون .

ورغم أن موقف الأمين كان لا يبشر بأي أمل ولا يريد سوى التشبث بعاصمة الخلافة التي اصبحت محاصرة (لم يصبح لها اتصال الا ببلاد الشام المضطربة) فهو لا يريد الخروج منها – كما نصحه بعض الناس – ومحاولة تنظيم قوات من جديد بالشام ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة اعدائه في سبيل أنقاذ ما يمكن أنقاذه اذا كان هناك ما يمكن أنقاذه .

في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون ، وصارت تقترب من بغداد شيئا فشيئا ، وكانت كلما قربت اضطربت أمر الجيوش البغدادية وانسحب افرادها هذا ما حدث بالمدائن حيث نزل طاهر (بصرصر) وما حدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين . كل هذا والأمين لا يفقد الامل ، بل وربما اعتقد في مقدرة بغداد وحدها على استعادة دولتها المفقودة ،ففي محاولة اخيرة عمل على استمالة جيوش طاهر ببذل الأموال والتلويح ببريق الذهب ، ودس بينهما الجواسيس .

ونجحت التجربة جزئيا اذ شغب بعض الجند على طاهر وأنضم فريق منهم الى جانب الأمين (حوالي 5 ألاف) ولكن النجاح لم يذهب الى أبعد من ذلك اذ تمكن طاهر بسرعة من السيطرة على رجاله وهزم جيش بغداد الذي اقترب من مواقعة فلجأ الى داخل المدينة التي أصبحت مطوقة تماما من جميع الجهات وافلت زمام القواد – الذين كانوا يطلبون المال بجشع والحاح – من يدي الأمين وعمت العاصمة الفوضى فنقبت السجون وخرج اهلها وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب .

رغم حالة الفوضى التي عمت بغداد لم يكن من السهل اخذ المدينة التي بناها المنصور لتكون اولا وقبل كل شيء معسكرا لجنوده وملجأ يستقر فيه في أمان من مفاجاة الاعداء فللمدينة سوراها الضخمان ، والخندق الممتد بينهما ، ثم هي مقسمة بعد ذلك الى احياء (ارباع) شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية ، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص . وبعد ذلك هناك الاحياء والاسواق خارج الاسوار وهي مكتظة بالمباني والسكان ويمكن الاعتصام بها .

عرف طاهر ذلك وعمل على ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم . فقسم دائرة الحصار الى اربع مناطق وعهد بكل منطقة الى قائد ونزل هرثمة بالمنطقة الشرقية (وراء دجلة) بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الانبار
(باب الكوفة) .
وصمم الأمين من جهته على المقاومة المستميتة دون النظر الى العواقب مضحيا بمدينة الخلفاءفلما احوجه المال ضرب انية الذهب والفضة وفرقها في اصحابه ولما خرجت عليه احياء المدينة امر بأحراقها بالنفط والنيران وبالمجانيق ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا ايضا بالنسبة للاحياء التي ظلت تقاومه وسماها دار النكث (أهل الأرباص ومدينة المنصور واسواق الكرخ والخلد ، لامتلائها بالعامة والغوغاء) كما أنه لجأ الى أرهاب الاعيان الذين لم يخرجوا اليه من الهاشميين وكبار القواد في اموالهم واملاكهم فصادر مزارعهم الموجودة خارج المدينة .

ولم يمض وقت طويل حتى انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال . كما استأمن كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعة الطريق ، من اعداء النظام ومن ينهبون ويسلبون ويقاومون جنود طاهر ورغم انهم لم يكونوا مسلحين او كانوا يحملون اسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة ، ومعها المقاليع فأمكنهم من شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما ، بل واكثر من هذا تمكنوا اثناء قتال الشوارع والبيوت من أن يلحقوا بهم في بعض الاحيان خسائر فادحة وأن يحرزوا بعض الانتصارات ايضا وأتخذ طاهر ازاء هذه المقاومة اجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والاحياء
(ما بين دجلة ودار الرقيق ، وباب الشام ، وباب الكوفة الى الصراة وربض حميد ونهر كرخايا) حتى عم الخراب واضطر كثير من أهل المدينة الى الجلاء عنها . وبعد ذلك عمد الى منع الاقوات عن المدينة (صرف السفن التي يحمل بها القوت الى الفرات) فغلا السعر وأصبح الناس في ضيق شديد .

سقوط بغداد ونهاية الأمين :

وأخيرا تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة وأحتل اسواق الكرخ ثم عمل على حصار مدينة المنصور ، المدينة الملكية وسط بغداد حيث كان الأمين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد أن فارقه كثير من جنده وجواريه واحاط قصورها (قصر زبيدة وقصر الخلد) بالمجانيق . ورغم هذا الضيق الشديد الذي وقع فيه الأمين فأنه لم يتخل عن عاداته من الانصراف الى الغناء و الاستمتاع بالشراب والموسيقى وربما وجد في ذلك بعض التخفيف من محنته ، وكان هذا ايذانا بالنهاية ، اذ لم يعد امامه سوى الاختيار بين أحد شيئين : أما القيام بمحاولة يائسة لاختراق صفوف المحاصرين بما تبقى لديه من الخيل وأما الاستسلام وطلب الأمان . ولما لم يكن الأمين من هؤلاء الرجال الذين يزدادون عزما كلما أزدادت الصعاب شدة ، فأنه ركن الى طلب الأمان وكل ما فعله أنه لم يرض أن يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه هرثمة بن اعين .

وكان من الطبيعي أن يثير طاهرا صاحب الحصار وتمكن الطرفان من ايجاد حل لذلك ، اذ أتفق على أن يدفع الأمين شعار الخلافة والخاتم والقضيب والبردة الى طاهر ويسلم الامين نفسه الى هرثمة فأتى هرثمة بحراقة (زورق)في دجلة لينقل الأمين اليها (وحده) ولكن طاهرا لم يكن ليرضى أن يفوته شرف أستسلام الخليفة ، فدبر اغراق الحراقة بأيدي اصحابه تدبيرا سافرا وتنتهي قصة الأمين نهاية مأساوية بأن يؤسر وهو في ريعان شبابه ، ويحبس في أحدى الدور ، وفي ظلام الليل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويذبحونه ذبح الشاة من قفاه (في يوم الاحد 23 محرم 198هـ) ويسيروا برأسه الى طاهر الذي يرسله بدوره الى المأمون صاحب العرش دون منافس.

استسلمت بغداد بعد اذن ، وفي يوم الجمعة التالي (28 من المحرم) دخل طاهر بغداد وصلى الجمعة ودعا للمأمون . وكان المتوقع أن تهدأ الاحوال ويستتب الأمن وتستقر الامور بعد موت الأمين وخلوص الأمر للمأمون وهذا ما لم يحدث فالمسألة كانت اكثر من ذلك تعقيدا ، اذ معنى انتصار الولايات الشرقية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزحزح نحو المشرق وفعلا لن يدخل المأمون بغداد الا بعد ست سنوات قضاها في عاصمة ولايته الشرقية وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية ألوانا من الاضطرابات وصنوفا من الفتن والثورات وذلك حتى يعود الخليفة من جديد الى العاصمة بغداد .

فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة وأشترك فيها الجند الذين طالبوا بأرزاقهم ونادوا بموسى بن الأمين وظن طاهر أن في الأمر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم على التنكيل بأهل الأرباض ولولا تدخل الأعيان واعتذارهم اليه . وعندئذ حمل طاهر ولدي الأمين وهما موسى وعبد الله وأمر بتسييرهما الى المأمون بخراسان .